الدلائل القرآنية

في أن العلوم والأعمال النافعة العصرية داخلة في الدين الإسلامي

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

مقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله غير الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ﷺ تسليمًا.

أما بعد، فهذه رسالة تتضمن البراهين القواطع الدالة على أن الدين الإسلامي، وعلومه وأعماله وتوجيهاته، جمعت كل خير ورحمة وهداية وصلاح وإصلاح مطلق لجميع الأحوال، وأن العلوم الكونية والفنون العصرية الصحيحة النافعة داخلة في ضمن علوم الدين وأعماله ليست منافية لها كما زعم الجاهلون والماديون، ولا جاءت الفنون العصرية النافعة بشيء جديد كما ظنه الجاهلون أو المتجاهلون، بل النافع منها للدين والدنيا وللجماعات والأفراد داخل في الدين، والدين قد دلّ عليه وأرشد الخلق إليه، وإلى كل أمر نافع إلى أن تقوم الساعة، وبيان أن الفنون العصرية إذا لم تبنَ على الدين وتُربط به فضررها أكثر من نفعها، وشرها أكبر من خيرها، ولكن هذا الأصل الكبير يحتاج إلى أمرين:

أحدهما: معرفة ما دلّ عليه الكتاب والسنة إجمالًا وتفصيلًا. **والثاني**: معرفة بالأمور الواقعة والحقائق الصحيحة التي يعرفها ويعترف بها العقلاء المنصفون.

فمتى عرف الإنسان الأمرين عرف أنه لا يشذ عن علوم الدين الإسلامي وأعماله وفنونه شيء فيه خير وصلاح أصلًا، واستدل العارف بكل من الأمرين على الآخر، وعرف أن النقص بالإخلال بهما أو بأحدهما، ومتى عرفت الأصول الكلية رُدت إليها الجزئيات، ومتى تكلّم متكلّم بشيء من الجزئيات قبل أن يعرف الكليّات حصل الغلط الفاحش، وقامت الشبه التي لا تروج إلا على الجاهلين أو يروِّجها المعاندون.

فصل

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]. فهذه الآية الكريمة صرَّحت بأن الله تعالى يقول الحق وهو الصدق واليقين في أخباره، والعدل والحكمة في أوامره ونواهيه، فكل ما أخبر به فهو حق وصدق ونافع للعباد في إصلاح عقائدهم وأخلاقهم ودينهم ودنياهم، وكل ما أمر به فهو برٌّ وخير وإحسان ونفع وبركة، وكل ما نهى عنه فهو شر وضرر وفساد لا فرق في هذا بين الأمور الدينية والدنيوية.

وشريعة الإسلام كلها تفصيل لهذا الأصل العظيم الذي ذكره الله في هذه الآية وغيرها، ثم قال: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ وهو الطريق الموصل إلى الحق الذي يقوله ويحكم به، فتكفل الله لعباده أنه لا بد أن يبيِّن لهم هذا الحق النافع بالأدلة الواضحة العقلية والنقلية كما قال في الآية الأخرى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، فإنه تعالى لما أخبر بتوحيده وتفرُّده بالكمال المطلق من جميع الوجوه، وأمر بعبادته وحده لا شريك له وإخلاص الدين له، وأن قوله حق، ووعده ووعيده حق، ورسوله وكتابه حق، أخبر أنه لا بد أن يريهم من الآيات في أنفسهم وفي الآفاق ما يتبيَّن لهم أنه الحق، وأن ما سواه باطل.

فالآيات الأفقية الكونية، والآيات النفسية، كلها تحقق هذه الأصول العظيمة ويُعرف بها أن الله هو الحق، وقوله وكتابه ودينه حق.

فالآيات الأفقية مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] الآيات، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ

ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وآيات كثيرة يخبر فيها عن أحوال الكون، وأنه آيات وأدلة على وحدانية الله وصدقه وصدق رسله.

فالذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة بهذه الأوصاف البديعة، وعلى هذا النظام العجيب والخلق الكامل والإحكام والحسن، هو المتفرد بالربوبية والإلهية واسع الرحمة والحكمة. وهو الذي أحاط بكل شيء علمًا، ومن كان هذا شأنه فهو الذي يجب أن يُعبد وحده لا شريك له، ويشكر ويذكر، لما له من عميم الإحسان وسوابغ النعم.

وما فيها من عظيم الخلق دال على كمال قدرته وعظمة سلطانه، وما فيها من النظام البديع الحسن والخلق الكامل دال على شمول حكمته وحمده، وما فيها من التخصيصات المتنوعة دال على نفوذ مشيئته وإرادته، وما فيها من المنافع والمصالح للعباد التي لا يمكن إحصاؤها ولا تعداد أجناسها فضلًا عن أنواعها فضلًا عن أفرادها، دليل على سعة رحمته وعموم فضله وكرمه وجوده وإحسانه.

وكل ذلك دليل على وجوب عبادته وإخلاص العمل له، وأن الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة قادر على أن يحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير.

وأما الآيات النفسية، فإن الله قال: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]، ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٧٧]، ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق: ٥، ٦] ونحوها من الآيات التي ينبِّه الله فيها الإنسان على التأمل والنظر في ابتداء خلقه وتطوره، وكيف تنقلت به الأحوال من النطفة إلى أن صار إنسانًا كاملًا في بدنه وفي عقله، وكيف أحسن الله خلقه ونظَّمه هذا النظام العجيب، فوضع فيه كل عضو يحتاج إليه في منافعه كلها، ووضع كل عضو في محله اللائق به الذي لا يحسن ولا يليق أن يوضع إلا في محله.

ثم ليتأمل في غذائه وما أودع الله فيه من قوة الشهوة للطعام والشراب وتوابعها، وما وضع فيه من الآلات المعينة على الأكل والشرب، وما أودع فيه من الحرارة العظيمة التي

تطبخ الأطعمة الغليظة والخفيفة ثم تنفذها إلى جميع أجزاء البدن، فيأتي كل عضو وحاسة حظها ونصيبها من الغذاء الذي لولاه لتلاشى الإنسان وهلك.

وجعل الله لثفل الأغذية وما لا ينفع في الغذاء مجاريه تندفع إليها وتخرج من البدن؛ لئلا تبقى فيه فتضره أو تهلكه، ثم لينظر الإنسان ما وضع الله فيه من العقل الذي يتميز به عن الحيوانات كلها، وهدى الله فيه الإنسان إلى هدايات دينية ودنيوية لا يمكن عدّها ولا إحصاؤها، وكما هداه بالعقل إلى الانقياد لعلوم الرسل وأديانهم، هداه به إلى تسخير المواد الكونية والمعادن والمخترَعات والصناعات التي لا تزال تتجدد كل وقت.

وقد أخبر تعالى أنه سخَّر لنا جميع ما في السماوات والأرض ننتفع بآياتها ونستخرج منافعها وكنوزها ونشكره على ذلك التسخير والهداية والنعم التي لولا فضله وكرمه، لم يحصل لنا منها شيء.

ومن آياته الأفقية النفسية إخباره تعالى أنه سخَّر للإنسان جميع ما في السماوات والأرض ومعادن الكون وعناصره، ثم إخباره بأنه أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، وجعل له السمع والبصر والفؤاد وآلات العلم وعلمه ما لم يكن يعلم، فحمل بهذا التسخير وبهذا التعليم من فنون العلم وفنون المخترعات الباهرة ما هو مشاهد معلوم ترقت به الصناعات، وتوسعت به المخترعات وتنوعت به المنافع، وتقاربت به الأقطار الشاسعة، وتخاطب به أهل المشارق والمغارب.

أمَا يدل ذلك دلالة قاطعة على كمال قدرة الله وصدق ما أخبر به من الغيوب التي كان المكذبون ينكرونها استبعادًا لها وقياسًا منهم لقدرة من يقول للشيء كن فيكون على قدرة الآدمي الضعيف في علمه، وفي قدرته وفي أحواله كلها؟

فأراهم الله من آثار قدرته على يد هذا الآدمي ما دلَّهم على كمال قدرة خالقه ومعلمه، وعلى وحدانيته وصدق رسله. وهو لا يزال يريهم آياته شيئًا فشيئًا في الآفاق وفي أنفسهم، فانتفع بذلك الذين يريدون الحقَّ واتباعه، وقامت الحجَّة البالغة على المعاندين المكابرين،

وصار علمهم وبالًا عليهم إذ تكبَّروا به وامتلئوا غرورًا باطلًا، فالله الذي خلق الإنسان وأعدَّه وأمدَّه بكل وسيلة يدرك بها أنواع العلوم النافعة والفنون المتنوعة الدينية والدنيوية، وربط هذا بهذا، فأمر بالقيام بالدين والاستعانة بهذه الوسائل على قيام الدين والدنيا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وأمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فالمؤمنون تمَّت عليهم النعمة في الدنيا والآخرة، واستعانوا بالطيبات وأصناف[1] المنافع التي لا تحصى على عبادة الله وطاعته، وصار اشتغالهم بهذه المنافع التي يُتوسل بها إلى إصلاح الدين والدنيا عبادة من العبادات وقربة من القربات.

وأما من سواهم من الماديين والضالين الغافلين، فإنهم عرفوا ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة غافلون، واشتغلوا بالدنيا عن الدين ونسوا الله فأنساهم أنفسهم وأنساهم مصالحها، فتمتعوا فيها تمتع الأنعام السائمة، فخسروا الدنيا والآخرة، إن ذلك هو الخسران المبين. فانقطعوا بالأسباب عن مسبِّبها، وانقطعت صلتهم بالله حين قام الكبر في قلوبهم، كما قال الله عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

استعذ بالله من هذا الكِبْر الذي حال بين الإنسان وبين سعادته، ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

(١) في المطبوع: «أضاف»، ولعل المثبت هو الصواب.

فصل

وإذا فكَّر العبد في قوته: طعامه وشرابه كيف يدخل من مدخل واحد ويستقر في موضع واحد وهو المعدة، فيقيض الله له في ذلك الموضع من الحرارة والأسباب الأخر ما ينضجه ويتميز جوهره وصافيه ونافعه، فيتفرق في جميع أجزاء البدن لتغذيتها وتنميتها، وما يبقى من الثفل جعل له مخارج يخرج منها؛ لئلا يبقى فيضر ويقتل؟

ولا يزال هذا المعمل العظيم يعمل عمله بإذن الله ويؤدي مهماته، فهل هذا من مقتضى الطبيعة والمصادفة، كما يقوله الماديون؟ أم هذا تقدير العزيز العليم الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سوَّاه ونفخ فيه من روحه، وجعل له السمع والأبصار والأفئدة، فتبارك الله أحسن الخالقين؟

وقد نبَّه الله على البعث بالتفكر في أطوار الإنسان وتنقلاته، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥ - ٧].

فجعل الله تنقل الإنسان في هذه الأطوار وإحياءه الأرض بعد موتها دليلًا وبرهانًا على

هذه الأمور الخمسة التي يتميز بها المؤمنون، ويثبتونها تصديقًا لله ولرسله، واستدلالًا بهذه البراهين العقلية الحسيَّة.

فصل

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣]. وعدَّد الله على العباد في كتابه أصناف النِّعم وأجناسها وقال: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٣].

فالنِّعم الظاهرة والباطنة كلها من الله، الحاصلة بغير سبب منهم والحاصلة بالأسباب التي هداهم إليها ويسَّرها لهم، وهو الذي أوجدها وأوجد أسبابها ووسائلها، وذلك شامل لنِعم الدين ونِعم الدنيا.

فعلوم الكون وفنونه كلها من نعمه وتيسيره، وهو الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم وأقدره على ما لم يقدر عليه لولا إقداره، فعليه أن يشكره على ذلك كله، ومن الشكر اعترافه أنها من الله، ومن تيسيره والاستعانة بها على ما خُلِقَ له العبد.

فصل

قال الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١، ٢].

أخبر تعالى أنه أنزل القرآن على رسوله محمد ﷺ في وقت تراكم فيه الجهل والظلم والظلمات وأنواع الشرور، ليخرج الناس به من هذه الظلمات المتراكمة فيعلِّمهم ما لم يكونوا يعلمون، ويحرِّك عزائمهم ويثير هممهم وحواسهم إلى الخير وإلى الإيمان به، وبرسله وطاعته وطاعة رسوله، فتستنير معارفهم وتتضح طريقهم ويستقيم سلوكهم، وتتم لهم بذلك الخيرات وتندفع عنهم الشرور والمضرات.

فمن تلقى هذا الكتاب الذي هو أكبر النعم بفهم وقبول وانقياد لأوامره وإرشاداته المتفرعة المصلحة للدين والدنيا، فقد استقام على الصراط المستقيم، ومن أعرض عنه أو عارضه، فهو الكافر الذي فسدت أحواله.

﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ فإنه لم يكن كفرهم عن اشتباه وخفاء للحق أو اتباع طريق هدًى، بل كفرهم صدر عن رغبة في الترف وحب الدنيا الذي صدَّهم عن الهدى والحق، فاستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، أولئك في ضلال بعيد. وأي ضلال أعظم من ضلال من آثر الهوى على الهدى، والشقاء على السعادة، والشر على الخير؟

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧]، وذلك أن العقل وحده لا يستقل بمعرفة الله، ولا يعرف عبادته وتفاصيلها ولا تفاصيل اليوم

الآخر، حتى يهتدي بنور الوحي الذي أوحاه الله إلى رسوله، ويكون له قلب يجعل الأفكار والتصورات إرادات وهممًا تحثُّ صاحبها على اختيار النافع على الضار، والخير على الشر، والهدى على الضلال، والأخلاق الجميلة على ضدها.

فالقلب الحيُّ إذا نظر في الوحي، وتأمل ما جاء به الرسل من الحق في عقائده وأخلاقه وأعماله، لم يُؤْثِر على ذلك شيئًا، فإنه يعلم أنه ليس بعد الحقِّ إلا الضلال.

فالتصورات والعلوم وحدها بلا قلب يتطلع إلى الخير والحق لا تكفي وحدها، بل قد يكون ضررها كثيرًا لخلوِّها عن الإيمان، وخلوِّها عن التوجيهات الصحيحة، ولِتَكَبُّرِ أهلها بها، كما قال الله عن أمثال هؤلاء: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

فجحدهم لآيات الله واستكبارهم عنها، واستهزاؤهم بها، واحتقارهم لأهلها أوجب لهم فقد الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم، فلم يزل هذا دأبهم حتى حقّ عليهم العقاب، فانظر كيف كانت علومهم التي لم تبنَ على الإيمان، وإنما هي علوم جافة منحرفة صارت سببًا لمعارضتهم الرسل وبقائهم على ما هم عليه من الكفر والتكذيب بالحق، فنعوذ بالله من علم لا ينفع.

فصل

وقال الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠]، أي: أعطى كل مخلوق خِلقته اللائقة به المناسبة لحاله، ثم بعد هذا الخلق هدى كل مخلوق لما خُلق له، وهذا يشمل أنواع الهدايات كلها.

فالحيوانات غير الإنسان، هدى كل صنف منها إلى ما يناسبها مما لا تتم حياتها الحيوانية إلا به، من جلب المنافع الخاصة ودفع المضار عن نفسها.

وأما الإنسان، فهداه الله هذه الهداية واختصه بهدايات أُخر استكمل بها دينه ودنياه إذا استعملها كلها، وأما إذا استعملها في غير ما خُلقت له، فهذا قد استحب واختار العمى على الهدى، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧].

وبهذه الهداية الخاصة بالإنسان سخَّر له جميع ما وصلت إليه قدرته من علوم الكون، وهذه الهداية تشمل الهداية المجملة والمفصلة في علوم الشرع وأعماله، وفي علوم الكون وأعماله. فعلَّمه العلوم الشرعية وهداه إلى معرفتها ثم إلى العمل بها، وعلمه علوم الكون ثم يسَّر له سبلها فسلكها، وكل أحد أعطاه من هذه الأمور ما هو اللائق به وما تقتضيه حكمته التي منها إن عرف الأمور النافعة وحرص عليها، وعلى اتباع الحقِّ واستعان الله عليها يسّرها عليه وفتح عليه منها بحسب حاله وقوته وكفاءته، كما قال ﷺ: « **احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ** »(1)، وهذا الحديث في الصحيح.

فقوله: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**»، دخلت فيه الأمور الدينية والدنيوية، فمن حرص عليها،

(١) مسلم (٢٦٦٤)، أحمد (٨٧٩١).

واجتهد في تحصيلها، وسلك الطرق الموصلة إليها واستعان الله عليها تم له ما أراد، ومن لم يحرص على الأمور النافعة أو لم يستعن بالله في تحصيلها خاب وخسر.

وقد أخبر الله في عدة آيات أن القرآن هدًى للناس وأنه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ويهدي للتي هي أقوم. فكل أمر فيه خير وصلاح ونفع فالقرآن يهدي إليه ويرشد العباد إليه.

فصل

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

فأخبر تعالى أنه أرسل الرسل لهداية الخلق وأيَّدهم بالآيات البينات المبينة للحقائق الدالة على صدقهم وحقيقة ما جاءوا به، وأنزل معهم الكتاب الذي فيه الهدى والرحمة، وأنزل معهم أيضًا الميزان الذي هو العدل وما يعرف به العدل من أصول العدل وفروعه، وذلك ليقوم الناس بالقسط إذا عملوا بها في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم وسلوكهم، وجميع أمورهم.

فمتى عملوا بما أنزله الله من الكتاب والميزان، صلحت منهم هذه الأمور واستقامت أحوالهم.

وأخبر تعالى أنه أنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، فخصَّ منافعه في أمور الحرب ثم عمَّمها في سائر الأمور. فالحديد أنزله الله لهذه المنافع الضرورية والكمالية الخاصة والعامة.

فجميع الأشياء إلا النادر منها تحتاج إلى الحديد، وقد ساقها الله في سياق الامتنان على العباد بها، ومقتضى ذلك الأمر باستخراج هذه المنافع بكل وسيلة، وذلك يقتضي تعلم الفنون العسكرية والحربية وصناعة الأسلحة وتوابعها، والمراكب البحرية والبرية والهوائية، وغير ذلك مما ينتفع به العباد في دينهم ودنياهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، فهذا يتناول الأمر بإعداد المستطاع من القوة العقلية والسياسية والمادية والمعنوية، وأخذ الحذر من الأعداء بكل وسيلة وبكل طريق، فجميع الصناعات الدقيقة والجليلة والمخترعات والأسلحة والتحصنات، داخلة في هذا العموم.

فهذا الدين الإسلامي يحثُّ على الرقي الصحيح، والقوة من جميع الوجوه، عكس ما افتراه أعداؤه أنه مخدِّر مفتِّر، وهم يعلمون كذبهم وافتراءهم عنه، ولكن المباهتات والمكابرات سهلت عليهم وظنوا من جهلهم أنها تروج على العقلاء، وكل عاقل يعلم كذبهم وافتراءهم، وإنما يغترُّ بهم الجاهلون الضالون الذين لا يعرفون عن الإسلام لا قليلًا ولا كثيرًا، بل يصوِّر لهم هؤلاء الأعداء الإسلام بصور شنيعة؛ ليروِّجوا ما يقولونه من الباطل، وإلا فمن عرف الإسلام معرفة صحيحة عرف أنه لا يستقيم أمور البشر دينها ودنيويها إلا به، وأن تعاليمه الحكيمة أكبر برهان على أنه تنزيل من حكيم حميد، عالم بالغيب والشهادة، رحيم بعباده، حيث شرع لهم هذا الدين الذي قال فيه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وقال في وصف النبيِّ محمد ﷺ، ووصف ما جاء به من الدين: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فأخبر أنه لم يبق معروف عقلًا وشرعًا إلا أمر به، ولا منكر إلا نهى عنه، ولا طيب نافع إلا أحله، ولا خبيث ضار إلا نهى عنه، وأنه مع ذلك سهل ميسَّر قد وضعت عن أهله الآصار والأغلال وأنواع المشاق، وأن من التزمه وآمن به، واتبع النور الذي أنزل معه، فهو المفلح في دينه ودنياه.

والفلاح هو الفوز بكل مطلوب مرغوب، والنجاة من كل هلاك ومرهوب، لأنه يهدي للتي هي أقوم من الأخلاق والأعمال وصالح الأحوال.

وقال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

فالحق هو ما جاء به الرسول ﷺ في أصول الدين وفروعه وفي أمور الدين والدنيا، والباطل ما خالفه وناقضه.

فكل ما خالف الدين الإسلامي، فهو باطل لا يثبت للحق عند المقابلة، وإنما يروج إذا غاب الحقُّ عنه عند الجهال بدين الإسلام، وإلا فمتى عرف الدين الإسلامي على ما هو عليه، فإن أهل العقول الوافية والألباب الصافية لا يبتغون به بدلًا، ولا يختارون عليه سواه، لأنه يدعو إلى سعادة الدنيا والدين، فيجمع بين السعادتين.

فهؤلاء يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١]، وهم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٥٥].

وهم حين قاموا بالإيمان والعمل الصالح الذي يشمل شرائع الدين كلها أنجز لهم ما وعدهم من الاستخلاف في الأرض والتمكين والعزِّ والكمال، وحين قصروا في ذلك

عُوقبوا بتسلُّط الأعداء. فكان هذا العزّ إذ قاموا بدينهم وهذا الذل الذي أصابهم حين ضيَّعوه أكبر برهان على أن الدين هو الحق، وأنه مدار السعادة والفوز في الدنيا والآخرة، وأن الشقاء والخذلان بتضييعه.

وأما ما حصل لأعدائه من عزٍّ مؤقت على وجه الاستدراج، فكما قال الله عنهم: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧] ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

فصل

وقد أمر الله بالتفكُّر والتدبُّر في السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء، وحثَّ على استعمال الفكر في آياته المخلوقة، وفي آياته القرآنية: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥] ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الروم: ٤٢] ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

فقد أمر باستعمال العقل والفكر في آياته المخلوقة وفي آياته المتلوة، ليدرك العبد بعقله ما في المخلوقات من المنافع والآيات فيفقهها ويستعملها وينتفع بها بحسب أحوالها، وأخبر أنها آيات لقوم يؤمنون، ولقوم يعقلون، ولقوم يوقنون.

فأهل الإيمان والعقل الصحيح واليقين الصادق تفكَّروا فيها، وانتفعوا وارتفعوا في الدنيا والآخرة، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، فالذين لا ينتفعون بآيات الله إما رجل في غاية الجهل والضلال قد حُرم نعمة العقل والفهم، وإما رجل معاند مكابر قد غرَّه عقله وذكاؤه وتكبر عن آيات الله.

فالعاقل الموفق كلما تفكَّر في الكون، وفهم أسراره وحكمه امتلأ قلبه إيمانًا ويقينًا، وقال: سبحان الله عن أن يخلق شيئًا عبثًا أو سُدًى، وسبحانه أن تكون أفعاله البديعة خالية من الحِكم والغايات الحميدة، وسبحان من خلق هذا الكون العجيب المحكم في نظامه، واتساقه وارتباط بعضه ببعض ما بين أرضه وسمائه وإنسانه وحيوانه ونباته، فعرف أن خالقها ومدبِّرها ربٌّ واحد وإله واحد، فتوجه إليه بالإيمان والاعتراف والشكر والطاعة، وخضع لحكمته وعظمته وسلطانه، ولم يكن ككثير ممن انقطعوا بالمخلوقات عن خالقها

وبالمسببات عن مسبِّبها، ولم ينفذوا في علمهم من السبب إلى المسبب ومن الخلق إلى الخالق، كحالة أكبر الماديين القاصرين في علمهم وعقلهم.

والعاقلُ يحمد الله على العافية من هذا الداء العُضال، الذي هلك فيه كثير من الخَلق.

فصل

قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال عن المؤمنين: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

وهذا الأمر الذي أمر الله نبيّه فيه بالمشاورة، وأخبر عن المؤمنين أنهم يتشاورون فيه، يشمل جميع الأمور الدينية والدنيوية المتعلقة بهم وبغيرهم، فدلَّ ذلك أن الأمور التي توضحت مصلحتها ومنفعتها تتعيّن المبادرة إلى فعلها، وما وضحت مضرَّته يتعين البعد عنه، وما اشتبه منها يستعينون عليه بالمشاورة والمراودة، حتى يتضح فيه الصواب ويتبيّن فيه النفع أو الضرر.

ولا يستريب عاقل أن هذا الأصل العظيم الذي أمر الله به ومدحه، وهو المشاورة في الأمور، هو السبيل الوحيد لصلاح الأحوال كلها، وأنه كما تدخل فيه العلوم والأعمال الشرعية، فكذلك العلوم والأعمال المادية، وكما يدخل فيه أمور الأفراد يدخل فيه أمور الجماعات.

وفوائد المشاورة الضرورية والكمالية لا تُعدُّ ولا تُحصى، وتوقف كثير من الأمور عليها أمر معلوم لكل أحد، وكل أمر من الأمور يشاوَر فيه أهله وأهل الخبرة به، والمعرفة والقوة عليه.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٣، ٧٤] ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

والصراط المستقيم الذي يدعو إليه الرسول محمد ﷺ ويدعو إليه هذا القرآن العظيم، هو الطريق المعتدل الذي يتضمن استقامة العقائد والأخلاق، والأعمال المصلحة للدين

والدنيا وللأفراد والأمة، وهي تتضمن العلوم والأعمال الشرعية والكونية، لأن جميعها لا تتم الاستقامة إلا بها، وأمور المادة وحدها لا تُغني شيئًا وضررها أكبر من نفعها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾.

فصل

إذا أردت أن تعرف ضلال الملحدين الماديين الذين يقولون: وُجدت الموجودات والحوادث مصادفة بلا خالق خلقها ولا مبتدع أحدثها، وأنه مع ضلالهم المبين في حُمق وجنون لا يخفى إلا على من ليس له عقل ولا سمع ولا بصر، إذا أردت أن تعرف ذلك منهم وتعرف أن الأمور كلها بخلق الله وتقديره وتدبيره، فانظر إلى هذا العالم العظيم: شمسه وقمره وكواكبه وأرضه وما فيها من الحوادث، وتأملها ببصرك وبصيرتك، تجدها كلها في غاية الحُسن والإِحكام والنظام البديع الدَّال دلالة قاطعة أن خالقها واحد أحد، فرد صمد، حكيم عليم، وأنه على كل شيء قدير، وأن العقول والألباب لتَحَار إذا توجهت إلى حكمته وبديع نظامه في بعض مخلوقاته فضلًا عن جميعها، فتبارك الذي أحسن كل شيء خلقه، وقدَّره تقديرًا.

انظر إلى الشمس والقمر ومقدار بعدهما من الأرض، وأنهما لو قربتا من الأرض زيادة عن هذا الواقع أو بعدتا كذلك، لحدث الضرر الكثير في الأبدان والنباتات، وجميع ما على وجه الأرض.

وانظر ما يترتب على سيرهما من تعاقب الفصول الأربعة المضطر إليها الإنسان والحيوان والنبات، وما فيها من منافع الضوء والإنضاج والمنافع الأُخر.

وانظر إلى نفسك، وما فيها من العِبر العظيمة، وكيف وضع كل عضو في موضعه اللائق به بحيث لو وضع في غيره لتشوشت الخلقة وفاتت المنفعة، وكذلك جميع الحيوانات بهذا الوصف.

فهل يتصور أن يكون ذلك مصادفة بلا خالق خلقها ولا مبتدع ابتدعها؟

إن تناسب عناصر الحياة، وأنها كلها بوزن ومقدار لو زاد أو نقص لاختلت الحياة لأكبر دليل على توحيد الباري وعلى إبطال مذهب الماديين، وأن الذي أوجد الحياة في الأشياء الحية، وجعل من آثارها ما جعل، لهو على كل شيء قدير.

ومن نظر إلى الحيوانات الكبار والصغار وإلهام الله لها كل ما تحتاجه وتحيلها على مصالحها وما أعطاها من الفطنة والذكاء، والأعمال العجيبة التي يعجز عنها الإنسان، عرف بذلك أن هذا لا يصدر إلا من إلهام من أعطى كل شيء خَلقه ثم هَدَى.

فصل

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨]، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

والآيات في الثناء على الصلاح والإصلاح والأمر به كثيرة، وكذلك في النهي عن الفساد وذم المفسدين في الأرض بعد إصلاحها.

والإصلاح يشمل إصلاح الأمور الدينية والدنيوية. فكل أمر هو صلاح وإصلاح أو يتوسل به إلى ذلك، فهو داخل في هذه النصوص، كما أن ضده الإفساد يدخل فيه النهي عن الشر والفساد والضرر في الدين والدنيا والأعمال كلها، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وغير ذلك.

وحيث أطلق العلم شمل العلوم الشرعية - وهي الأصل وهي أشرف العلمين - وشمل العلوم الكونية، فكل علم نافع في الدين أو في الدنيا فهو داخل في مدح العلم وأهله.

فصل

قال الله تعالى في بيان جلال أحكام الشرع وحسنها وعدالتها ورحمتها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، إلى غير ذلك من الآيات المفصّلة للأحكام الشرعية المأمور بها والمنهي عنها، وبيان أن الله ما أمر إلا بالأوامر النافعة المحتوية على كل خير وبركة ورحمة، ولا نهى إلا عن كل خبيث ضارّ ليس فيه نفع.

وتتبع أوامر الشريعة من الكتاب والسنة، وتأمل حكمها وحسنها من أكبر البراهين على أن الدين الإسلامي هو الدين الحقّ الصحيح، حيث أمر بما هو حسن نافع طيب، ونهى عن ضده.

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦].

قال في الاقتصاد: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقال في الجمع بين مصلحة الدين والدنيا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ٩، ١٠]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] الآية.

فصل

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ [الروم: ٤٨] الآيات، ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦]﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠].

وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٣٢] الآيات، ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨].

فهذه الآيات الكريمات، وغيرها مما يشبهها إذا تأملها العبد، وعرف ما دلَّت عليه وما شملته من العلوم الشرعية والكونية وأعمالها، وعرف سنة النبي ﷺ الجارية مجرى التفسير لكتاب الله، وتأمل هديه في جميع شئون حياته، عرف أنه لا يشذ عن دين الإسلام مصلحة من المصالح ومنفعة وخير وصلاح، وعرف أن القرآن تبيان لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، وأن الأمور إذا بُنيت عليه تمت مصلحتها، وكل أمر فقده فسد ونقص، والواقع يشهد ذلك.

وقد دلَّت أيضًا هذه الآيات، وغيرها أن العقل الصحيح مؤيد للشرع وشاهد له، وأن من خالف الشرع فقد خالفه بغير عقل صحيح، بل بجهل وضلال، كما قال تعالى عن جميع من حكم عليهم بالخلود في النار ممن عاندوا الشرع أنهم قالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

فأخبر أنهم فقدوا السمع وهو الأدلة النقلية، وفقدوا العقل، وكيف يكون له عقل من أشرك بالله الخالق الرازق المدبِّر للأمور كلها، المتفرِّد بكل كمال، أحدًا من المخلوقين الناقصين من كل وجه.

بل كيف يكون عقل لمن حجه الباري الذي لو شكر الإنسان بكل شيء من المحسوسات والمعقولات، لم يكن له أن يستجيز عقله الشك في الله، ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وهذا استفهام إنكار متقرر عند كل من له مسكة من عقل أن الشك في الله حمق وجنون ومكابرة، ليس أكبر منها مكابرة.

وقول بعضهم: إذا تعارض العقل والشرع قدَّمنا العقل، هذا جهل عظيم بما دلَّت عليه عقول العقلاء، فإن العقل للشرع شاهد له، وهل يظن العاقل أن الشارع الحكيم يحكم بأحكام تخالف العقل الصحيح، فضلًا عن أن يخبر بأخبار ينافيها الواقع؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

ولهذا ينبِّه الله العقول والفطر على المطالب العظيمة والتوحيد والنبوة والمعاد، مثل قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فنبَّه العقول على أمر تعرفه ولا تنكره، وهو أن كل ما عبد من دونه ليس له ملك ولا شركة في الملك ولا مظاهرة ولا شفاعة. وإذا انتفت هذه الأمور الأربعة، ثبت بطلان عبادة من سوى الله.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] كما نبَّه على تفرده بالخلق

والربوبية والوحدانية بقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

وكما نبَّه على المعاد بالخلق الأول، وخلقه السماوات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، وبإحياء الله الأرض بعد موتها، وكما برهن على صدق الرسول وما جاء به من القرآن بتحديه الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور مثله أو بسورة واحدة، واحتجَّ على الخلق بحسن ما جاء به الرسول من أخباره الصادقة وأحكامه العادلة، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وإن كنت في ريب من ذلك، فتتبع كل خبر أخبر الله به في كتابه أو أخبر به رسوله محمد ﷺ تجدها أعلى درجات الصدق وأنفع ما يكون للعباد، فإن تصديقها واعتقاد مخبرها من أكبر مغذيات الإيمان.

وتأمّل ثانيًا: هل في خبر الله وخبر رسوله شيء يخالف الحس والواقع والعقل الصحيح، أم تجد هذه الأمور من أكبر الشواهد على تحقيق خبر الله ورسوله؟!

وتأمل ثالثًا: هل تجد في أحكام الله ورسوله من الأوامر والنواهي شيئًا ينافي الحكمة والمصلحة للعباد، أم تجدها هي الغاية في كمال الخلق وعلو مراتبهم وتخلّقهم بالأخلاق الجميلة وتنزّههم عن الأخلاق الرذيلة؟ فهي التي ترفع أهلها إلى أعلى مراتب الكمال، ولا يكون النقص والضرر إلا بالإخلال بها أو ببعضها، وقد اعترف بذلك الأولياء وألقى شبهة روجها على الجاهلين بالإسلام.

وبالواقع متى فعل ذلك في بعض فروعه النادرة ظهر كذبه وافتراؤه وظهرت المصلحة للخلق والفوائد الكثيرة في القول الذي دلَّت عليه شريعة الإسلام، لأنها شريعة أحكم الحاكمين، عالم الغيب والشهادة الذي يعلم من مصالح عباده ما لا يعلمون، وشرع لهم ما يصلحهم في كل زمان ومكان في دينهم ودنياهم، وهو الحكيم العليم الرحيم.

فصل

ومن الأدلة العقلية النقلية الأمثال التي ضربها الله في القرآن، فإنها كلها تنبه العقول وتوضح البراهين العقلية على وحدانية الله وتوحيده، وعلى صدق رسوله وصحة ما جاء به.

فمن زعم أن شيئًا من الأدلة العقلية التي يسلمها العقلاء تخالف ما جاء به محمد ﷺ، فهو مغترّ وليأتِ بمثال واحد ولن يستطيع ذلك، نعم قد يأتي بنظريات وخيالات إذا حققت عقلًا وجدت جهليات وضلالًا مبينًا مثل قول كثير من الملحدين: إن العقوبات والحدود التي جاء بها دين الإسلام على الجرائم غير لائقة ولا مناسبة للقوانين، والأحسن عندهم أن يستبدل بها الحبس والغرامة المالية.

وهذا سفسطة ومكابرة للواقع، فإن القوانين التي يسنّها الملحدون ومن قلّدهم على الجرائم لم تغنِ شيئًا، وظهر نقصها وفشلها العظيم، وأنه لا أثر لها في ردع المجرمين، وأن السبب الوحيد لردع كل مجرم تطبيق الحدود الشرعية، والعقوبات الدينية، فهي الكفيلة بردع المجرمين، وهي عقوبات ونكال وموعظة لو طُبقت في قطر من الأقطار لصلحت أحوالهم، وقلَّ الجناة والمجرمون، وحصل الأمن على الدماء والأموال والأعراض، لأنها تشريع من حكيم بأحوال العباد وما يصلحهم ويقيهم الشرور.

ومثل قول كثير من الماديين الملحدين ومن قلَّدهم تقليدًا أعمى: إنه يجب أن تكون الأفكار حرَّة، وإن لكل أحد حريته في الرأي الذي يرتئيه والاقتراح الذي يُبديه على أيِّ حال يكون.

وهذا قد ظهر أيضًا ضرره العظيم، وإن حرية الأفكار وإعطاء كل أحد حريته فيها قد تبين

أنها السبب الوحيد في الفوضوية، وأنها أعظم من حرية الأفعال، بل هي أصلها، فإنه متى أعطي الناس حريتهم فيها انحلت أخلاقهم وعقائدهم، ومرجت أعمالهم وصارت البهائم أحسن حالًا منهم، وهذا هو الواقع في كل قطر أطلقت فيه الحريات، ولم تُقيد بالقيود الشرعية العقلية.

فإنّ النفوس أمَّارة بالسوء، وطبيعتها الأشر والبطر، والانطلاق خلف كل شهوة ضرَّت الأفراد والجماعات أو لم تضرهم.

فكما أن إطلاق الحريات في الأفعال مطلقًا لا يمكن البقاء معه، فلو ترك لكل أحد حريته وأن له أن يقتل أو يجرح أو يضرب أو يأخذ أموال الناس وأعراضهم لفسدت الأحوال واختلت الدنيا ووقع الهرج والمرج والضرر الكبير، فكذلك حريات الأفكار متى أُطلقت، أتت بالمنكرات والفظائع الشنيعة، وكان من ثمرتها الخبيثة الاستغناء عن الدين، وعن الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وإنكار ما جاءوا به، وكذلك إنكار ما دلَّت عليه العقول الصحيحة من وجوب التقيد والتحرز عن الأمور الضارة في الاعتقادات والأخلاق والأعمال.

ومن جرَّاء حريات الأفكار ما تسمعه في الصحف الإلحادية والصحف الخليعة من المقالات التي تقشعرُّ منها قلوب العقلاء وقد ضرَّت ضررًا كبيرًا في العقائد والأخلاق، بل ضرت الحكومات والجماعات والأفراد.

أما شريعة الإسلام، فإنها - ولله الحمد - جاءت بتنبيه العقول والحثّ على التفكُّر في الأمور التي ينفع التفكير فيها، كآيات الله المخلوقة وآياته المتلوة، وسلكت في تفكُّرها ونظرها المسالك الصحيحة، فأقرَّت العلوم النافعة والمعارف الصادقة والحثّ على كل خُلُق جميل والحذر عن كل خُلُق رذيل، وجعلت للأفكار حدًّا صحيحًا إن تجاوزته، وقعت في المهالك وأنواع الضلالات.

فالأفكار إن لم تقيدها العقول الصحيحة والدين الصحيح الذي وضعه الله للعباد فيه

صلاح شئونهم وكمال أحوالهم، فإنها تحدث الفوضى والخطأ والضلال والشقاء والحمق والجنون.

وكذلك ما افتراه كثير من أعداء الإسلام والمنافقين، أن الإيمان بقضاء الله وقدرته يحدث الفتور والاستسلام وعدم الحركة، وهذا الزعم منهم افتراء ظاهر وكذب صريح، فإن الدين الإسلامي قد أمر بأصلين عظيمين لا تتم الأمور كلها إلا باجتماعهما:

أحدهما: الإيمان بقضاء الله وقدره، وأن الأمور كلها والأسباب مربوطة بالقضاء والقدر، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

الأصل الثاني: الأمر بالأعمال النافعة في الدين والدنيا، والبعد عن الأسباب الضارة.

وكل واحد من الأصلين يمدُّ الآخر، فالإيمان بالقضاء والقدر يمدُّ العاملين وينشِّطهم ويوجب لهم اقتحام الأمور الصعبة اتكالًا على الله واستمدادًا من حوله وقوته، ويزيل من قلوبهم خوف المخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا. والسعي والعمل هو من قضاء الله وقدره، فإنه أخبر أنه يوجد الأشياء بأسبابها؛ ولهذا يجمع الله بين الأصلين في مواضع كثيرة من كتابه مثل قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٤ - ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠]، فأمر بالأعمال ورغَّب فيها ووعد التيسير لليسرى لمن قام بالأسباب النافعة، والتيسير للعسرى لمن ترك الأسباب النافعة.

وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ**»[1]، وهذا شامل للحرص على الأمور النافعة في الدين والدنيا، فعلم أن دين الإسلام يكذب ما افتراه عليه

(١) سبق تخريجه ص٤٧٥.

أعداؤه من أنه مثبِّط مخدِّر، وإنما هو منشِّط وحاثٌّ على كل عمل نافع.

وإن الإيمان بالقدر من أعظم المنشطات لكل عمل نافع وأعظم المسهلات لها، ولهذا قال ﷺ: « **اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ؛ أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ** »، وتلا ﷺ عند ذلك هذه الآية: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾[1] الآيات.

ولهذا كان الدين الإسلامي يعتبر من يترك العمل اتكالًا على القدر أحمق مجنونًا، وينكر على المشركين الذين يحتجون على تركهم العمل بالأسباب النافعة بالقدر والمشيئة، ويخبر أن الاحتجاج بذلك دأب الأمم الطاغية الذين عُوقبوا بأنواع المثُلات، فما من عمل نافع دقيق أو جليل إلا حثَّ الشارع عليه وعلى وسائله ومكملاته، ولا عمل ضار وكسل وتقاعد إلا حذر منه غاية التحذير، ونصوص الشرع في هذا الأصل لا تُعد ولا تُحصى، ومن أنكر ذلك فهو مكابر مباهت وهو من أعظم الناس ضلالًا.

(١) البخاري (٤٩٤٩)، مسلم (٢٦٤٧).

فصل

ومما روَّج به الملحدون باطلهم وعلومهم المخالفة للدين أنهم زخرفوا لها العبارات فسمَّوها تجديدًا ورقيًّا وتقدمًا، ونحوها من الأسماء التي يغرِّرون بها من لا بصيرة عنده، وتسميتهم للحقِّ الذي جاء به الرسول محمد ﷺ جمودًا ورجعية وتخديرًا ورجوعًا إلى الوراء، كما قال تعالى عن أسلافهم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢، ١١٣].

فأخبر تعالى أن هذا دأب أعداء الرسل في كل زمان، وأنهم يزخرفون العبارات؛ لتحسين باطلهم، وتقبيح ما جاءت به الرسل، وأنهم يتواصون بذلك ويفترون على الله الكذب، وأنه يغترُّ به من لا علم له ولا بصيرة ولا إيمان، فهؤلاء أخذوا كل ما افتراه الأولون من أسلافهم المكذبين، وزادوا زيادات كم اصطادوا بها ضعفاء البصائر، وليس ما جاء به الرسول جحودًا ولا رجوعًا إلى الوراء، وإنما هو الحقُّ والنور والحياة والرشد الذي لا حياة للوجود، ولا للقلوب ولا للدنيا إلا به، ولا نور إلا باقتباس نوره، وهو الموقظ للهمم والعزائم إلى كل خصلة حميدة، وإلى كل رقيٍّ صحيح وتقدُّم نافع.

فإن من أصول الشريعة الكبرى وجوب العمل بالأسباب النافعة، مقاصدها ووسائلها، والحثّ على كل عمل صالح ومصلحة، والاستعانة بالله في تحقيق ذلك مع بذل الجهد.

ومن المعلوم أن من تحقق بهذين الأصلين: بذل المجهود في كل أمر نافع، والاستعانة بالمعبود، فإنه لا يزال في تقدم ورقيّ مطرد في إصلاح الدين وفي إصلاح الدنيا المعينة على

الدين، كما قال ﷺ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ...**»[1].

وكم في كتاب الله وسنة الرسول من الأمر بكل عمل نافع والحثّ على التقدم الصحيح النافع للأفراد والجماعات والشعب والحكومات، وأما العلوم المادية الخالية من روح الدين ورحمته، فإنها تقدم إلى الهلاك والدمار، وتقدم إلى هدم كل خُلُق جميل والاتصاف بكل خُلُق رذيل، والمشاهدة والحسُّ أكبر شاهد على ذلك، فإنه محال أن يحصل التقدم الصحيح إلا إذا صحبه الدين الصحيح الملازم للحقِّ، فإن الباطل وإن كان له نوع صولة، فعاقبته الزوال والاضمحلال، ومنتهاه الخسارة والهلاك.

فعند هؤلاء الملحدين أن التجديد والرقي هو الاندماج في معنوية الأجانب أعداء الأديان كلها، وزوال شخصياتهم في شخصيات أولئك والتشبه بهم في أخلاقهم ولباسهم وحركاتهم وعوائدهم الدقيقة والجليلة، فيرون الانسلاخ من دين الله الذي هو الحقّ ومن أخلاقه الجميلة هو التقدم والرقي، فاستبدلوا الأدنى الخسيس بالأعلى الكامل النفيس، وصاروا مع أعدائهم في ظاهرهم وباطنهم، وكانوا بذلك أكبر سلاح للأعداء على دينهم وقومهم، ولهذا كانوا يقلِّدون الأجانب في الأمور الضارة، وأما ما عندهم من الأمور التي تنفع إذا انضم إليها الدين فهم أبعد الناس عنها، كما هو معروف من أحوالهم.

---

(١) سبق تخريجه ص٤٨٣.

فصل

ومما يروِّج به المنحرفون باطلهم: لهجهم الشديد بالثقافة العصرية زاعمين أن الأخلاق لا تتهذَّب ولا تتعدل إلا بها، ويطنبون في مدحها ومدح المثقفين فيها وفي ذمٍّ من لم تكن له هذه الثقافة والسخرية منهم، وهم يفسرونها تفاسير متباينة منحرفة، كلٌّ يتكلم بما يخطر له؛ لأن العلوم إذا كانت فوضى والأخلاق تتبعها هكذا، يكون أهلها لا يتفقون في آرائهم ونظرياتهم على شيء.

وكل أقوالهم ترجع إلى هبوط الدين والأخلاق، وإنما الثقافة الصحيحة والتهذيب النافع هو ما جاء به الدين الإسلامي الذي هذَّب العقائد عن الشرك والوثنيات، وهذَّب الأخلاق عن كل خُلُق رذيل، وهذَّب الأعمال والآداب حتى استقامت بها الأمور، وصلحت بها الأحوال، وجمعت بين الدين والدنيا، وبين تقويم المعنويات النافعة والماديات المعينة عليها.

وذلك أن المشاهدة شاهدة بما ذكرنا، فإن العلوم العصرية والمخترعات مع توسعها وتبحُّرها حيث كانت خالية من الدين، عجزت كل العجز عن إصلاح الأخلاق واكتسابها للفضائل الصحيحة، وعن ترفعها عن الرذائل، وإنما الذي يتكفَّل بهذا الإصلاح ويتولى هذا التهذيب النافع، ويوجه إلى كل خير ويزجر عن كل شر هو دين الإسلام، فإنه مُصلح للظاهر والباطن، لأمور الدين والدنيا، ومن نظر إلى أصوله وفروعه وإلى ما دعا إليه وحثَّ عليه، وإلى ما زجر عنه، وجد الأمر كما ذكرنا، بل فوق ذلك، والله الموفق.

ولا تنظر إلى من تسمَّى بالإسلام، ونبذ أخلاقه وراء ظهره وتحتج به على الإسلام والمسلمين في ضعته وجموده وهبوط أخلاقه.

فإن الإسلام بريء ممن هذه حاله، وإن تسمَّى بالإسلام، فليس له منه إلا رسمه، فإن دين الإسلام دين الرفعة والرقيّ الصحيح، فتعاليمه وإرشاداته وأخلاقه وأعماله كلها في غاية الإحكام والانتظام في رسائلها ومقاصدها، وهي الغاية في توجيه المتصفين بها إلى كل خير وصلاح وإصلاح، كما هو معروف من حال أول هذه الأمة القائمين به حقيقة، الذين ملئوا الدنيا عدلًا ورحمة وصلاحًا وإصلاحًا للأحوال كلها، وبهم يضرب المثل في الكمال الإنساني، فمن أراد أن يعرف آثار الدين فلينظر إلى أمثال هؤلاء، وأما من أراد المكابرة والتغرير، فله نظر آخر.

فصل

يقول كثير من الناس: هذا وقت العلم والمعارف والرقيِّ، ومقصودهم بهذا الإعراض عن الماضي وعن علوم الدين والتزهيد فيها، وقد صدقوا من جهة، وكذبوا من جهات أُخر.

قد صدقوا أنه وقت ترقت فيه علوم الصناعات والمخترعات وما يرجع إلى الماديات والطبيعيات، وقد كذبوا أفظع الكذب حيث حصروا العلم بهذا النوع ولم يعلموا أن العلم الحقيقي النافع هو العلم بما جاء به الكتاب والسنة الكفيل بكل خير دينيّ ودنيويّ وأخرويّ.

والعلم النافع من علوم الصناعات والمخترعات داخل في ضمن هذا، بل العلم الديني هو الذي يصيِّر العلوم الطبيعية والصناعية نافعة نفعًا صحيحًا، وهو الذي يوجِّهها إلى نفع النوع الإنساني، ويمنعها من التهور المهلك. ولهذا نقول: وقد كذبوا أيضًا من جهة أن هذه العلوم التي افتخروا بها لم يوجهوها التوجيه النافع، بل استعملوها فيما يضرُّ الخلق في الإهلاك والإِفناء والتدمير، فهي من أعظم النعم، ولكنها باستعمالهم إياها كانت من أكبر النكبات والنِّقم.

وهذا من المعلوم الذي لا ريب فيه أن الشيء الذي لا يتولى الدين الصحيح توجيهه، فهو منعكس ضرره أكبر من نفعه.

وقد صدقوا أنه زمان ترقي الماديات الجافة، وقد كذبوا في إطلاقهم الترقي، فيظن الظانّ أنه ترقٍّ في كل شيء، إنما هو ترقٍّ في الصناعات والمخترعات لا في الأخلاق الفاضلة والديانات، فلا ينفع الترقي في الماديات إذا هبطت الأخلاق التي عليها المدار في كلِّ شيء، وهي التي تصلح الأشياء ولا تصلح الأمور بدونها، كما هو مشاهد محسوس، فأيّ ترقٍّ صيَّر أهله بمنزلة السِّباع الضارية، دأبها الظلم والفتك والاستعمار للأمم الضعيفة وسلبها حقوقها؟

فالترقي الصحيح الذي هو من آثار الدين من آثاره العدل والرحمة والوفاء بالحقوق، والحثّ على كل خير والتحذير من كل شر، هذا هو الترقي الذي لم يشمُّوا له رائحة ولا خطر بقلوبهم، وكيف يخطر بقلوبهم وقلوبهم ملأى بالهلع والجشع والزهو والكبر والغرور ومن كل خُلُق رذيل؟!

وقد كذبوا أيضًا في زعمهم أن العلوم العصرية والفنون الاختراعية النافعة هم الذين ابتدءوها، وأن الشريعة الإسلامية لم تهد إليها ولم ترشد إلى أصولها. وهذا بهتان عظيم ومكابرة يعرفها من له أدنى نظر في الدين الإسلامي، وكيف أصَّل للعباد أصولًا عظيمة نافعة، بها صلاح دنياهم، كما أصَّل لهم أصولًا نافعة فيها صلاح دينهم.

وقد ذكرنا بعض النصوص من الكتاب والسنة الدَّالة على هذا الأصل كما سبقت الإشارة إليه، نعم لو قالوا: إن الناس في هذا الوقت انتفعوا بهذه الأصول والتعاليم الدينية في ترقية الصناعات وابتكار المخترعات ومعرفة طرق الاقتصاديات وما أشبه ذلك، ولكنهم رقوها ترقية مبتورة مقطوعة الصلة بالله وبدين الله، فلهذا نفعت من جهة وضرّت من جهات.

نفعت بما اشتملت عليه من منافع العباد الدنيوية، ونفعت من استعان بها على الدين والخير.

وضرَّت من جهة أنها سبَّبت لأهلها الوحشية والهمجية اللتين من آثارهما الإهلاك والتدمير والشرور التي لم يوجد لها نظير فيما سبق. وضرَّت أيضًا من جهة ما أحدثت في نفوس أهلها من الزهو والغرور والكبرياء واستعباد الضعفاء وظلمهم وهضم الحقوق، والشرور المتنوعة.

فلو أن هذه المخترعات تولَّى الدين توجيهها لحصل فيها من المنافع أضعاف أضعاف ما شُوهد، ولاندفعت مضارها وشرورها، ولكانت مبنية على الخير والصلاح، ولكان من آثارها الخير والإصلاح للدين والدنيا، ولكن لله في خلقه شئون.

فصل

أعظم آفات العلم وقواطعه الانخداع بالوقوف مع المخلوقات دون خالقها، وبالآثار عن مؤثرها، وبالأسباب عن مسببها، وبالوسائل عن مقاصدها. وهذا النوع نقصه كثير وضرره كبير، فإن كثيرًا من الملحدين والمغترّين بهم يمهرون في العلوم الطبيعية، ولكنهم يقفون معها ويعمون عن ارتباطها بخالقها ومسبِّبها، والذي أودع فيها من العجائب والأسرار ما أودع، فيرون أنفسهم قد عرفوا من عجائب علوم الطبيعة ما لم يعرفه غيرهم.

ومن الأسرار التي أودعها الله في الطبائع ما زادوا به على غيرهم، فيأخذهم الزهو والغرور ويقفون معها ويرونها هي الحاصل وهي المقصود وهي الغاية، فيحصل الانحراف العظيم، والنقص في العلم والعقل.

فلو أنهم عرفوا وأثبتوا الموجد الحقيقي والمدبِّر للأمور كلها، وربطوا الأسباب بقضائه وقدره، وعلموا أن الأسباب محل حكمته، فإنه تعالى حكيم يضع الأمور مواضعها، ويجعل الأمور الدقيقة والجليلة منتظمة بنظام عجيب وارتباط وثيق، وجعل لكل مطلوب ومقصود سببًا ووسيلة وطريقًا يوصل إليه، ولذلك نتيجة وثمرة بحسب قوة الأسباب وضعفها وبحسب قوة العامل بها وضعفه، ثم ربطوا هذه الأسباب والوسائل والنتائج بقدر الله وقضائه، لو أنهم فعلوا ذلك في عملهم لتمَّ علمهم، وحصل لهم من اليقين ما لا يحصل لمن لم يصل إلى ما وصلوا إليه.

ولكنهم فرحوا بما عرفوه من الوسائل التي يعرفون نتائجها الدنيوية ملموسة وتكبَّروا بها، فانطبق عليهم قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ

أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وهذا أعظم آفات العُجب والكِبْر على الإطلاق، وأعظم الطرق التي اغترَّ بها، وانخدع كثير من الخلق.

فنسأل الله أن يرزقنا العلم الصحيح المؤيد بالعقل والنقل والفطرة، وهو العلم النافع الذي يعرفه العبد من جميع نواحيه، وهو العلم الذي يربط الفروع بأصولها ويردّ الأسباب وآثارها ونتائجها إلى مسبّبها وإلى الذي جعلها كذلك، وهو العلم الذي لا ينقطع صاحبه بالمخلوق عن خالقه، وبالآثار عن مؤثرها، بالحكم والأسرار والنظامات العجيبة عن محكمها ومنظمها ومبدعها.

وهذا العلم هو الذي يثمر اليقين وتحصل به الطمأنينة وتتم به السعادة والفلاح، ويثمر الأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة المُصلحة للدين والدنيا.

أما علوم المنحرفين، فإنها كما ذكرنا مقطوعة مبتورة جافة، نهاية نفعها كنفع الصناعات المادية، كما هو مشاهد محسوس، لا تثمر إيمانًا ولا أمانة ولا رحمة ولا أخلاقًا جميلة، بل ثمراتها ضد ذلك، يؤسف غاية الأسف لكل ذي عقل كبير وذكاء مفرط أن تكون هي غايته وثمراته.

فإن العقلَ الصحيحَ فهمُ الأشياء والإحاطة بها من جميع نواحيها، ثم العمل بالأمور النافعة، واستغلال الخيرات والمواهب التي وُهبها العبد والجمع بين مصالح الدارين ومنافع البدن والروح، والنظر الصحيح للمبادئ والعواقب، وربط الأمور المتصلة بعضها ببعض، فكل من لم يتصف بهذه الأوصاف، نقص من عقله بحسب ذلك، فكيف بدينه؟!

فصل

ومن علامات المنحرفين في أديانهم وعقولهم، اغترارهم بآرائهم وعقولهم السخيفة، واحتقارهم لعقول صفوة الخلق وخلاصتهم من الأنبياء وأتباعهم وأهل الهدى، وبهذا تعرف مكابرتهم ومبالغتهم وإنكارهم ما لا يمكن إنكاره، وجحدهم فضل من قبلهم؛ ليتوصلوا بذلك إلى ردِّ الحقِّ، وليصدوا العباد عن دين الله وسبيله.

فيعبرون عن الحقائق التي جاءت بها الرسل يقولون: هذا عقل قديم، هذا رأي عتيق، هذا أساطير الأولين، كما قابلت الرسل أعداؤهم بهذه الأقوال الخبيثة الساقطة. وقد اغترَّ بأقوالهم هذه كثير من النشأة والشبيبة الذين لا بصيرة لهم، ولا عقول ناضجة.

أما علموا أن العقول لا تكمل، ولا تزكو إلا بالوحي والقرآن، ولا تكون عقولًا نافعة حتى تغتذي بالهدى واليقين الذي جاء به الرسول؟! قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤]، ﴿لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. وهم أهل العقول الوافية والآراء السديدة، والأخلاق الزاكية.

فهل يوجد عقول صحيحة تقارب عقل النبي ﷺ الذي لم تستنر العقول والآراء إلا بعقله ورأيه وعلمه وتعليمه وإرشاده، فحسب العقول الكاملة أن تستمد من عقله ﷺ وآرائه وهداه ورشده، وتغتذي بنوره وتوجيهه وإرشاده؛ قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١ - ٤]، وهذا وصف للنبي ﷺ بكمال العلم والهدى وكمال الرشد وكمال العصمة في أقواله وأفعاله، وبذلك يعلم أن كل ما خالف هديه ورشده وإرشاده فهو ضلال وغيّ وسفاهة وشر وهلاك، والواقع أكبر شاهد على ذلك.

فهل حصل لأحد مثقال ذرة من الخير الظاهر والباطن ومن الثمرات النافعة الجليلة إلا على يده وبتعليمه صلوات الله وسلامه عليه؟ وهل اهتدى أحد إلا بامتثال أمره واجتناب نهيه؟ وهل صلح شيء من أمور الدين والدنيا صلاحًا لا فساد معه إلا بالمشي خلفه واتباعه في أصول الدين وفروعه، وفي الوسائل والمقاصد؟ فلا خير وهدى ورحمة وصلاح وإصلاح للظاهر والباطن إلا دلَّ الخلق عليه وأرشدهم إلى مسالكه، ولا شر وضرر إلا حذرهم منه، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فمن كماله أنه هدى للتي هي أقوم في عقائده وأخلاقه وأعماله، فكملت به العقائد والأخلاق والأعمال، فلا يعتريه النقص بوجه من الوجوه.

ومن كماله أنه صالح لكلِّ زمان ومكان، وحالٌّ لجميع المشاكل الاجتماعية والشخصية.

ومن كماله أن جميع الحقائق العقلية والحسية، والتجارب الصادقة كلها داخلة فيه، وفي ضمنه.

ومن كماله أن النظريات المتباينة والاختلافات المتضادة بيَّن صحيحها من سقيمها، وصالحها من فاسدها، وعَدْلها من ظلمها، وحقّها من باطلها.

ومن كماله أنه كملت به العقول، واستنارت به الآراء، واستمدت من هدايته ما أصلحت به دينها ودنياها، فكل خير ديني ودنيويّ وظاهر وباطن من نتائجه وثمراته، ولذلك تمّت به النعمة على المؤمنين، وحصل به الخير المنوّع على جميع العالمين.

والحمد لله الذي تفضل به على العباد، وجعله هدى ورحمة في مصالح المعاش والمعاد، وصلَّى الله على محمد، وعلى آله وصحبه، وسلَّم تسليمًا.

كتبه الفقير إلى الله: عبد الرحمن الناصر بن سعدي.

في ١٠ محرم سنة ١٣٧٥هـ.